مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)

Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

قاعدة السياق القرآني وأثرها في الترجيح عند الشيخ أبي زهرة في تفسيره زهرة التفاسير دراسة نظرية تطبيقية(*)

DOI: https://doi.org/10.55074/hesj.vi33.837

أ/ سمية بنت ياسين بن جعفر السقاف

*) تاريخ تسليم البحث 3/8/2023 تاريخ قبوله للنشر 10/9/2023
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

قاعدة السياق القرآني وأثرها في الترجيح عند الشيخ أبي زهرة في تفسيره زهرة التفاسير دراسة نظرية تطبيقية

أ/ سمية بنت ياسين بن جعفر السقاف

الملخص

يتناول البحث السياق القرآني وأثره في الترجيح عند الشيخ أبي زهرة في تفسيره (زهرة التفاسير) بدراسة نظرية تطبيقية.

هدف هذا البحث إلى الكشف عن أهمية السياق القرآني وأنواعه، واستخراج أمثلةٍ تطبيقية من تفسير الشيخ أبي زُهرة رحمه الله؛ تُبِين عن استخدامه لقاعدة السياق في الترجيح بين النصوص، واستخدم المنهج الوصفي: لوصفِ الظاهرةِ فيه (ظاهرة السياق) وتحليلها للوصولِ إلى النتائج، والمنهج التاريخي بالوقوف على ترجمة الشيخ أبي زهرة، والمنهج التطبيقي بتطبيق قاعدة السياق على نماذج من تفسير الشيخ أبي زهرة. **ومن** أهم نتائج البحث: اتخذ الشيخُ أبو زهرة رحمه الله السياقَ القرآني أصلًا من أصول التفسير، وطبق ذلك عمليًّا من خلال تفسيره، وأوصي أن يكون هذا البحث بذرة بحوث أخرى أمكنَ علمًا وأكثرَ نضجًا وتوسعًا سواء في نفس الموضوع أو نحوه.

The rule of the Qur'anic context and its effect on weighting according to Sheikh Abu Zahra in his interpretation, Flower of Interpretations, an applied theoretical study

Sumaya bint Yasmine bin Jaafar Al-Saqqaf

Abstract:

The research deals with the Qur'anic context and its impact on weighting according to Sheikh Abu Zahra in his. interpretation (Flower of Interpretations) through an applied theoretical study. Revealing the importance of the Qur'anic context and its types, and extracting applied examples from the interpretation of Sheikh Abu Zahra, may God have mercy on him. It shows his use of the context rule in weighting between texts. The descriptive approach: by describing the phenomenon in it (the context phenomenon) and analyzing it to reach results, the historical approach by examining the translation of Sheikh Abi Zahra, and the applied approach by applying the rule of context to examples of Sheikh Abi Zahra's interpretation. Sheikh Abu Zahra, may God have mercy on him, took the Qur'anic context as one of the principles of interpretation, and applied that practically through his interpretation. Most important recommendations: I recommend that this research be the seed for other research. that provides more knowledge, is more mature, and expands, whether on the same topic or something similar.

مقدمة البحث:

الحمدُ للهِ منزلِ القرآنِ العظيمِ عِظَةً للمتقين، وسَنًا في طريقِ السالكين، وتِبْيانًا للناسِ أجمعين، والصلاةُ والسلامُ الأتمَّانِ الأكمَلانِ على خيرِ خلقِ اللهِ محمدِ بنِ عبد الله، وعلى آله وصحبه ومَن استنَّ بسُنَّته واتَّبَع هُداه إلى يومِ الدين؛ **أما بعد:**

فإنَّ القرآنَ العظيمَ هو حبلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، وصراطه المستقيم، وهو مَعْدِنُ الإيمان، والموردُ الأولُ للعلوم، وبفَهمِه الفهمَ الصحيح تستقيمُ الحياةُ كلُّها؛ ولا تتأتَّى تلك الاستقامةُ إلا بمعرفة مُراده، وتفسيرِ ألفاظه، وفَهمِ تراكيبه، وتدبُّر آياته.

وقد حث الله ﷻ خلقه إلى فَهمه وتدبره، فقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد آنسَ المسلمون عظيمَ فضل الله عليهم، فصرَفوا هِمَمَهم بتوفيق الله في خدمة كتابه، وسعَوا في شرح آياته، واستنفَدوا طاقاتِهم في بيانِ مقاصدِ الشارعِ ومُرادِه من خطابه، وما كان بيانهم لمعانيه وأسراره وغاياته، إلا على قواعدَ صحيحة وضوابطَ سليمة أصَّلوها؛ ليمنعوا العابثين في تفسير نصوص الكتاب العزيز من العبث.

فآتَت هذه القواعدُ والضوابط ثمارَها، وصارت حاضرةً في مصنَّفاتِ المفسرين لكتاب الله تعالى على تفاوتٍ بينهم من حيث التأصيلِ والدِّلالة، وهي ما تسمى بقواعد الترجيح.

وكان الشيخ أبو زهرة رحمه الله ممن عُني بهذه القواعد في تفسيره (زهرة التفاسير)، وقد اخترتُ من هذه القواعد، قاعدة السياق وآثارها في الترجيحِ في (تفسيره) رحمه الله.

وأهمية هذه القاعدة لا تَخفى على كل مهتمٍّ بعلم التفسير؛ فهي من أهمّ ما يُوصل للفهم الصحيح لكتاب الله تعالى؛ إذ هي المسلَك الأسلمُ لجعل كلام الله منتظمًا متناسبًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] كاشفًا عن أهمية هذه القاعدة: «ينظر في كل آية وحديثٍ بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات؛ فهذا أصلٌ عظيم مهم نافع في باب فَهْم الكتاب والسُّنة»[2].

كما أنَّ مما يُبين عن أهمية هذا العلم أنه مرتبِط بالقرآن نفسِه؛ فقد تكون الصِّلة بين الآية المفسَّرة والمفسِّرة لها في محلٍّ واحد وسورةٍ واحدة، وقد يَفترقان، وأغلبُ تفسير القرآن بالقرآن إذا أُطلِق يَنصرف إلى المتفرِّق في القرآن، وأقوى النوعين وأسلَمُهما ما كان في محلٍّ واحد وسورةٍ واحدة[3].

---

(١) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. الإمام الحَبر، البحر العلَم، المفسِّر الفقيه المجتهد، اجتمعَت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وله خبرة تامَّة بالرجال، وجَرحهم وتعديلهم، والتفسيرُ مُسلَّمٌ إليه، وكذا سائر العلوم الأخرى مع ما اشتهر عنه من الورَع وكمال الفِكر. من شيوخه: (الكمال بن عبد)، (والمجد بن عساكر). له مصنَّفات كثيرة، منها: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، (الرد على تأسيس التقديس للرازي). ومن تلاميذه: (ابن قيِّم الجوزية). تُوفي سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة. يُنظر: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية: (١١٦-١١٨، ١٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٨/٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن: (٣٢٢/٢).

فمِن منطلق أهمية هذه القاعدة، أردتُ البحثَ في تفسير أبي زُهرة عن تطبيقه لها، وأسميتُه: (**قاعدة السياق القرآني وأثرها في الترجيح عند الشيخ أبي زهرة في تفسيره زهرة التفاسير**).

أهمية الموضوع:

١- يُرشِد السياق القرآني إلى المسلك الصحيح الذي يُوصِل إلى فَهم مراد الله تعالى في كلامه.

٢- يُعدُّ الأصل القرآني – وضمنه السياق – أصلًا من أصول التفسير المعتبَرة في تفسير النبي ﷺ والسلف الصالح، كما أنه أصل معتبَر عند العلماء في فَهم كُليات آيات القرآن الكريم.

٣- يَبرز دور السياق القرآني في تبيين وتوضيح الآيات القرآنية، ويُبِين عن المعاني الراجحة من المرجوحة، والسليمة من السقيمة.

٤- تعد قاعدة السياق القرآني من أهمِّ قواعد التفسيرِ المتعلقة بالأصل القرآني؛ حيث إنه لا يجوز العدولُ عنه إلا بحُجةٍ يجب التسليم لها.

أهداف البحث:

١- الإبانة عن معنى السياق في اللغة والاصطلاح.

٢- الكشف عن أهمية السياق القرآني.

٣- عرض أنواع السياق القرآني.

٤- استخراج أمثلةٍ تطبيقية من تفسير الشيخ أبي زُهرة رحمه الله؛ تُبِين عن استخدامه لقاعدة السياق في الترجيح بين النصوص.

الدراسات السابقة:

لقد كَثُرت الدِّراسات حول دلالة السياق سواءٌ كانت تفسيريةً أو لُغوية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- **دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير (دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله: لعبد الحكيم بن عبد الله القاسم (١٤٣١هـ)**، إشراف الدكتور: حسن عبد العزيز علي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، نوقشت في قسم الدراسات العليا- بكلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

سلط الباحثُ الضوءَ على دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير، وجعلها دراسة نظرية تطبيقيَّة من خلال تفسير ابن جرير رحمه الله، فمهَّد لبحثِه بترجمةٍ موجزة للإمام الطبري رحمه الله، وكذا عرَّف بتفسيره، وختَم التمهيد بعرضٍ موجزٍ لدلالة الألفاظ عند الأصوليين، ثم أتبعَ تمهيدَه بالباب الأول، وجعَله في دلالة السياق القرآني وطريقة ابن جرير في تناوله، أما الباب الثاني فتحدثَ فيه عن أثر دلالة السياق القرآني في تفسير ابن جرير رحمه الله، فتكلم عن أثر دلالة السياق في القراءات، وأسباب النزول، وأثره في إظهار المناسبات، وكذا أثره في الدلالة على المعنى، وأثره في الدلالة على المحذوف من الكلام، وأثر دلالة السياق على وجود النسخ وعدمه، وأثره في التقديم والتأخير، وكذا أثره في تضعيف الأقوال.

٢- **السياق القرآني وأثره في التفسير، دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير رحمه الله؛ لعبد الرحمن عبد الله المطيري (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)**، إشراف الدكتور: خالد بن عبد الله القرشي، رسالة مقدَّمة لنَيل درجة الماجستير، نُوقِشَت بقسم الدراسات العليا – فرع الكتاب والسنة، بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى.

رامَ الباحثُ في رسالته الحديثَ عن أصل من أصول التفسير، ألا وهو السياق القرآني، وتطبيقه من خلال تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير رحمه الله، فترجم للإمام ابن كثير رحمه الله، وعرَّف بتفسيره، وتحدث في الباب الأولِ عن السياق وأهميته، وأنواعِه وقواعده، ثم أتبعه بابٍ آخرَ كان تطبيقًا عمَليًّا لآثار السياق القرآني من خلال تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله.

٣- **دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان للعلَّامة الشِّنقيطي (دراسة موضوعية تحليلية): أحمد لافي فلاح بطي المطيري (٢٠٠٧م)**، إشراف الدكتور: مصطفى إبراهيم المشني، رسالة مقدَّمة لاستكمال متطلَّبات الحصول على درجة الماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.

تحدث الباحثُ في دراسته عن دراسة تطبيقية لأصل من أصول التفسير؛ ألا وهو دلالة السياق القرآني، من خلال تفسير أضواء البيان للعلَّامة الشنقيطي.، فبدأ الباحثُ رسالته بمبحث تمهيدي تحدثَ فيه عن دلالة السياق القرآني، فعرَّف بمفرداته ومفهومه، وأركانه وأنواعه، وأهميته، ثم عرَّف بالشيخ الشنقيطي ومنهجه في كتابه أضواء البيان.

ثم تحدث عن أثر دلالة السياق القرآني في المأثور عند الشنقيطي، وأتبعَه ببيان أثر السياق عند العلامة رحمه الله في المناسبات، وفي بيانِ معنى الكلمة القرآنية، ثم تحدث عن أثر السياقِ في بيان المعنى الإجمالي ثم ختم البحثَ بقضايا السياق عند الشيخ الشنقيطي رحمه الله.

٤- **أثر السياق القرآني في التفسير (دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة)، لمحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرَّبيعة (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)**، إشراف الدكتور: محمد بن عبد الرحمن الشايع، رسالة مقدَّمة لنَيل درجة الدكتوراه، نوقِشَت في قسم الدراسات العليا-بكلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

رام الباحثُ في رسالته الحديثَ عن أصلٍ من أصول التفسير، ألا وهو السياق القرآني، وتطبيقه على سورتَي الفاتحة والبقرة من خلال اعتماده على عددٍ من كتب التفسير؛ منها: جامع البيانِ لابن جرير، والمحرَّر الوجيز لابن عطية، والكشاف للزمخشري وغيرهم، وجعل بحثَه على قسمين نظري وتطبيقي؛ ففي القسم الأول عرَّف بالسياق، وأبان عن أهميته وكشَف عن أنواعه وقواعده وآلتِه، ثم عرَض كيفية الكشف عن السياق، وصِلة هذه الدلالة ببعض العلوم الأخرى.

أما الفصل الثاني فقد بيَّن أثرَ السياق في الألفاظ والمعاني، وكذا في الألفاظ والتراكيب، وكشف عن أثر السياق فيه في خواتم الآيات وفواصِلها، وفي المعاني، وختَمه بأثر السياق في الترجيح، ثم انتقل للقِسم التطبيقيّ لدلالة السياقِ على سورتَي الفاتحة والبقرة.

٥- **قاعدة السياق (سباقًا ولحاقًا) وأثرها في التفسير، دراسة تطبيقية على تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**: سليمان معرفي سفر، (ط بدون)، (ب.ت)، (ب.م)، جامعة الكويت.

هدفَ البحثُ إلى تسليط الضوء على مسألة السباق واللحاق والسياق كقاعدة من قواعد التفسير التي يُمكن أن يُفسَّر بها القرآن، وإلى إمكان الترجيح بين الأقوال المختلفة في تفسير مسألة من المسائل أو تحديد مرجع الضمير، أو تحديد المراد من اللفظ المختلَف فيه.

وعُني البحثُ بالتركيز على مسألة السباق واللحاق والسياق وجمعها في مكان واحد، من الناحية التطبيقية في استعمالات المفسرين المتقدِّمين والمتأخرين لها، فاختار الباحثُ تفسيرَ (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم؛ لأبي السعود)، وطبق عليه القاعدة، وغير هذه الدراسات كثير.

أما عن الدراسات السابقة حول تفسير أبي زُهرة رحمه الله فهي كالتالي:

١- **العلامة محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره: شهاب الدين أمير زاده شمس، بحث منشور، (٢٠١٩م)**، من قسم الدراسات الإسلامية، كلية الإلهيات،

٢- **محمد أبو زهرة (١٨٩٨م-١٩٧٤م) ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير: أمل كاظم زوير الزيدي (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)**، إشراف الدكتورة: أسماء عدنان محمد الدليمي، رسالة عِلمية مقدَّمة لنيل درجة الماجستير في تخصص التفسير، نوقشت في قسم الدراسات العليا -كلية الآدابِ، بجامعة بغداد.

٣- **الاستنباط عند الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره (زهرة التفاسير) دراسة نظرية تطبيقية: منال بنت منصور القرشي**، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن، نُوقِشَت بقسم الدراسات العليا – فرع الكتاب والسنة، بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى.

وجاء هذا البحث ليسهم إسهامًا يسيرًا في خدمةِ هذا الأصل العظيم، ولكن بتطبيق مغايِر، وهو التطبيق لهذه الدلالة على تفسير الشيخ أبي زهرة رحمه الله، المسمى بـ (زهرة التفاسير)، حيث إنه لم يَسبق من خلال البحث والسؤال في مركز الملك فيصل، والمكتبات العِلمية من كتب في دلالة السياق في تفسير الشيخ رحمه الله، ولكن سُجِّل موضوع رسالة عِلمية بدراسة قواعد الترجيح فيه قريبًا.

إجراءات البحث:

١- الإكتفاء بالاستشهاد بالأحاديث الواردة في كتب الحديث المسنَدة، والاكتفاء بأحد الصحيحين إن كان الحديث المُستَدَلُّ به فيهما، وكذا الاكتفاء بالاستدلال بحديث واحد في موضع واحد، إن ورَد بروايات متعددةٍ، وفي أبواب مختلفة.

٢- عند العزو للصحيحين يتم ذِكرُ الكتاب والباب والجزء والصفحةِ ورقم الحديث، وعند العزو لغيرهما من كتب الحديث المسنَدة يُكتفى بالجزء والصفحةِ.

٣- يُكتفى في الترجمةِ باسم العَلَمِ ونسَبِهِ وكُنيتِهِ، ووجه شُهرتِهِ، واثنين من مصنَّفاتِهِ، وكذا ذِكْر اثنين من شيوخه وتلاميذه وسَنَة وفاته؛ وإن قلَّت عناصرُ الترجمة عن ذلك؛ فإنَّ هذا يَعني أني لم أقف على غير ذلك في الموارد والمراجع.

٤- لا أُترجِم للصحابة ﷺ ولا للمعاصرين، وأكتفي بالترجمة للعَلَم عند أول موضع يَرِدُ فيه، وإن تكرَّر ذِكرُه لا أشير إلى أنه قد سبَقَت ترجمته.

٥- الاعتماد في قواعد الترجيح في دلالة السياق على القواعد التي ذُكِرَت في كتاب (قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، لحسين بن علي بن حسين الحربي)، ثم استنباط ما يوافقها من تفسير الشيخ أبي زهرة رحمه الله.

٦- استخراج الأمثلة التي رجَّح أبو زهرة فيها القول الراجح معتمدًا على دلالة السياق، مع ذكر من وافقه أو خالفه – حسب ما يقتضيه المقام –.

منهج البحث:

سيرُ هذا البحثُ وفقَ ثلاثة مناهج أساسية:

الأوَّل: المنهج الوصفي: وذلك بوصفِ الظاهرةِ فيه (ظاهرة السياق) وتحليلها للوصولِ إلى النتائج.

الثاني: المنهج التاريخي: وذلك بالوقوف على ترجمة الشيخ أبي زهرة رحمه الله، والأعلام الواردة في البحث.

الثالث: المنهج التطبيقي: تطبيق قاعدة السياق على نماذج من تفسير الشيخ أبي زهرة رحمه الله.

خطة البحث:

تتكوَّن خُطة البحث من: تمهيد ومبحثين وخاتمة؛ وذلك على النحو التالي:

المقدمة: واحتوَت على أهمية الموضوع، وأهداف البحث، ومنهجه وإجراءاتِه والدراسات السابقة وخطته.

التمهيد وفيه:

أولًا: نبذةٌ تعريفية مختصرة بالشيخ أبي زهرة رحمه الله.

ثانيًا: نبذة تعريفية مختصرة بمنهج أبي زهرة رحمه الله في تفسيره زهرة التفاسير.

المبحث الأول: السياق في اللغة والاصطلاح وأهميته وأنواعه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: السياق في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: أهمية السياق القرآني.

المطلب الثالث: أنواع السياق القرآني.

المبحث الثاني: القسم التطبيقي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قاعدة إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلا بدليلٍ يجب التسليم له.

المطلب الثاني: قاعدة: لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

المطلب الثالث: قاعدة: حمل معاني كلام الله على الغالب مِن أسلوب القرآن ومعهودِ استعماله أولى مِن الخروج به عن ذلك.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج.

ثم خُتم البحث بثَبَتٍ للمصادرِ، وكشَّافٍ للموضوعات.

واللهَ أسألُ التجاوزَ عن الزلَّة، وأن يوفِّقنا لما يُحبُّ ويرضى؛ إنه خير مسؤولٍ، وأفضل مأمول.

وهذا أوانُ الشروعِ في المقصودِ، واللهُ المعينُ على كُلِّ مطلوب.

التمهيد: وفيه:

أولًا: نبذة تعريفية مختصرة بالشيخ أبي زهرة رحمه الله

اسمه ومولده:

هو: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعروف بأبي زُهرة. ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثَمانِمائة وألف ميلادي(١).

سَعة علمه ومصنفاته:

تميز الشيخُ رحمه الله بشدة الذكاء وسُرعة البديهة وقوة الحافظة، مما جعله يتولى مناصبَ كثيرة، فقد كان رحمه الله عالمًا متبحِّرًا في الفقه وأصوله وفي علوم القرآن وتفسيره، وخطيبًا مفوَّهًا، وأصوليًّا متعمِّقًا، ومجتهِدًا يَقرَع الحُجةَ بالحُجة، والمنطقَ بالمنطق لَا يُشَق له غبار، يسعى دائمًا لتقديم الجديد والفريد للمكتبة العربية والإسلامية، رافضًا أن تكون كتاباتُه تَردادًا لأقوال الآخرين لما عرف عنه من اعتزازه بنفسه وبغضِّه لسيطرة الآخرين بغير حق.

وفي سنة (١٩٣٣)، انتقل مِن التدريس في المدارس الثانوية العامة، إلى كلية أصول الدين – مع العلم أنه تولَّى قبل ذلك مناصبَ كثيرة، وتولى كذلك بعد التدريس مناصبَ كثيرة جدًّا(٢) – مدرِّسًا للجدَل والخطابة فيها، ثم تاريخ الديانات والمِلَل والنِّحَل، **وفيها أخرج أولَ مؤلفاته:**

كتاب (الخطابة)، وكتاب (تاريخ الجدل)، ثم كتاب (تاريخ الديانات القديمة)، ثم كتاب (محاضرات في النَّصرانية) الذي تُرجِم إلى عدة لغات، و(أصول الفقه).

وقد كانت مؤلَّفاته كما جاء في ترجمته في مقدمة (تفسيره)، تَزيد عن الأربعين، وإلى جانب ذلك فقد كانت له الكثيرُ من البحوث في العديد من المجلات العِلمية والاجتماعية: مجلة (القانون والاقتصاد)، و(مجلة المسلمون)، ومجلة (حضارة الإسلام)، ومجلة (القانون الدولي)، وكتاب (أسبوع الفقه الإسلامي)، وكتاب (أسبوع القانون والعلوم السياسية)، و(مجلة الأزهر)، و(مجلة العربي)، والعديد من المجلات بمختلِف الدول العربية.

---

(١) ينظر: زهرة التفاسير: (١/٤-٥).

(٢) ينظر: زهرة التفاسير: (١/٤-٥).

إلى جانب ما كان لفضيلته من أنشطةٍ واسعة في محاضرات وندوات عامة في مختلِف الجمعيات الاجتماعية والإسلامية العامة والخاصة داخل مصر وخارجها(١).

عقيدته:

فيما ظهر لي – والله أعلم – أنَّ الشيخ رحمه الله أَشْعَرِيُّ(٢) المعتقَدِ؛ فقد اعتمد في المسائل العقدية – التي تتبعتُها – على العقل لا على النقل، **ومن تلك المسائل:**

مسائل صفات الله الخبرية؛ وقد تأوَّلَها على غير منهج السلف؛ كصفة استواء الله على عرشه، فأوَّلَ الاستواءَ إلى الاستيلاء، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقال رحمه الله: «ويقول علماء الكلام: إنَّ للعلماء في مثل هذا النَّصِّ السامي: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ **منهاجين:**

أحدهما يفسِّر، فيقول: إنَّ معنى استوى: استولى على عرش هذا الوجود، وصار له السلطان الكامل فيه؛ لأنه مالكُ كلِّ شيءٍ، ولا شيءَ لغيره فيه، فهو المالِكُ وحدَه.

والثاني يفوِّض، فيقول: إنَّ الله ذكر أنَّه استوى على العرش، فنؤمن بذلك ولكن لَا نحاول أن نبحث عن مدى هذا المعنى، كما قال الإمام مالك ﷺ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والسؤال عن ذلك بدعةٌ».

فهو يرى أنَّنا نؤمن بالحقيقة، ولا نسأل عن كيفيتها، ونؤمن بنزاهة الله، فنُنزِّهه عن أن يكون له مكانٌ، فإنَّ ذلك شأنُ الحوادث، والله تعالى لَا يماثل الحوادثَ في شيءٍ.

وإنه لَيبدو لنا غير مفتاتين، ولا مدَّعين، أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ تعبيرٌ مَجازي، قُصد به استيلاء الله تعالى على حُكمِ هذا الذي خلقه، فهو تشبيهُ سلطانِ الله تعالى فيما خلق من السماوات والأرض وما بينهما، وتدبيره لهما، وتسييره أمرهما – بمن يستوي على عرش ملك يدبره، ويُسيِّر أمرَه، ولله – سبحانه وتعالى – المثلُ الأعلى في السماوات والأرض»(٣).

---

(١) ينظر: المرجع السابق: (٨/١).

(٢) والأشاعرة هم: فرقة كلامية إسلامية، تُنسب لأبي الحسن الأشعري، وقد اتخذوا البراهين والأدلة العقلية والكلامية وسيلةً في محاججة خصومهم من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم؛ لإثبات حقائق الدين. أهم أفكارهم ومعتقداتهم: مصادرهم في التلقي الكتاب والسنة على مقتضى قواعد علم الكلام؛ لذلك يقدمون العقل على النقل عند التعارض. أما في أبواب العقائد عامة ومنه باب الصفات؛ فإن مصدرهم فيه العقل، فيسمون الصفات التي تثبت بالعقلِ عقلية، أما الصفات الخبرية التي دلَّ عليها الكتاب والسنة؛ كالوجه واليدين والعين والقدم، فهم يؤوِّلونها. وأما في باب رؤية الله تعالى؛ فمصدرُهم العقل والنقل، على خلافٍ بينهم فيها. ويعتمدون على النقل وحدَه في باب السمعيات ذات المغيبات من أمور الآخرة، كما أنهم يخالفون أهل السنة في إثبات وجود الله، وكذا في باب التوحيد. ينظر: الملل والنحل: (٨١/١، وما بعدها). الموسوعة الميسرة: (٨٧/١، وما بعدها).

(٣) زهرة التفاسير: (٢٨٦٤/٦).

قول المصنِّف في تأويل الاستواء، مبني على منهجِ المتكلِّمين في العقيدة، الذين يؤوِّلون الصِّفاتِ الخبرية وَفقًا للمنهجِ العقلي، ويفرُّون من إثباتها بحجة التجسيم ومشابهةِ المخلوق.

أمَّا منهج أهل السنةِ والجماعة؛ فهو إثبات الصفاتِ الخبريةِ كما جاءت في الكتابِ والسنة بلا كيف، وجاء في كتاب (العرش): منهجَ أهل السنة والجماعة في الاستواء، فقال مصنِّفُه:

«كان قولُهم في الاستواء كقولهم في سائر صفات الله، فهم لا يمثلون صفاتِ الله بصفات خلقه، ولا ذاتَه بذوات خلقه، وكذلك لا ينفون عن الله ما وصَف به نفسَه، ووصفه به رسولُه صلى الله عليه وسلم، بل كان مذهبُهم في سائر الصفات -بما في ذلك الاستواء- أنَّهم يصفون الله بما وصف به نفسَه في كتابه، أو على لسان نبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم نفيًا وإثباتًا». وقال ابنُ القيِّم رحمه الله[1]: «وأمَّا ادِّعاؤهم المجازَ في الاستواء، وقولهم في تأويل (استوى): استولى؛ فلا معنى له؛ لأنه غيرُ ظاهرٍ في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة: المغالبة، والله تعالى لا يغالبُه ولا يعلوه أحدٌ، وهو الواحد الصمد، ومِن حقِّ الكلام أن يُحمَل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز؛ إذ لا سبيلَ إلى اتِّباعِ ما أُنزل إلينا من ربِّنا تعالى إلَّا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله عزَّ وجلَّ على الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنعْ من ذلك ما يجبُ له التسليم»[2].

وتتبعت أكثرَ مِن موضعٍ، فوجدته ينحى منحى الأشاعرة – والله أعلم -؛ وتركت ذكرها هنا حتى لا يطول المبحث

وفاته:

في صباح يوم الجمعة الموافق: (١٣٩٤/٤/١٢هـ)، شرع في إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملًا القلم والمصحف مفتوحًا على آخر ما وصل إليه في التفسير تعثَّر رحمه الله وسقَط ساجدًا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه إلى بارئها أثناء أذان المغرب -رحمه الله رحمة واسعة -[3].

ثانيًا: نبذة تعريفية مختصرة بمنهج أبي زهرة رحمه الله في تفسيره زهرة التفاسير.

شُغِفنَا حبًّا بالقرآن وتعرُّف أسراره ما استطَعنا إلى ذلك سبيلًا، وما وَسِعَه وقتُنا، وكنا ونحن نَتلوه، ونتعرَّف ما يمكن أن نَسمو إلى معرفته من معانيه نجد أمرين:

أولهما: أن كتب التفسير المطوَّلة تُبعثر المعانيَ السامية منه -وكلُّ معانيه سامية – وسطَ مضطربٍ من الأقوال في علم الكلام ومذاهبه، وآراء الفقهاء واستدلال كل صاحب مذهب على مذهبه.

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، أبو عبد الله، ابن قيِّم الجوزية. فقيه أصولي، ومفسِّر نَحْوي، كان عارفًا بالتفسيرِ والحديثِ والفقه والعربية وأصول الدين. من شيوخه: (الشهاب النابلسي العابر)، و(تقي الدين ابن تيمية). وأخذ عنه خلقٌ كثير. له مصنَّفات كثيرة، منها: (زاد المعاد في هدي خير العباد)، (إعلام الموقعين عن رب العالمين). توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. ينظر: ذيل طبقات الحنابلة: (٥/١٧٠- ١٧٣، ١٧٥- ١٧٦).

(٢) ينظر: العرش، للذهبي: (١/١٦٧). اجتماع الجيوش الإسلامية: (٢٠٧).

(٣) ينظر: زهرة التفاسير: (١/١٠-١١).

فوجَدنا بعض التفسيرات يتَّجِه إلى الإعراب، ومذاهب النَّحْويين، والمعاني الروحية السامية للقرآن تتمزَّق بأوجه الإعراب، والقرآن المعجِز وراء ذلك مستورٌ بغشاء من الجدل والاختلاف وتوجيه الأقوال.

والموجزات من التفسير يتجلى فيها القرآن مشرقًا نيّرًا كما هو في ذاته، ولكن لا تخلو من توجيه النص القرآني بالمذهب الأشعري أو المعتزلي، وإن كانت لا تُثير جدلًا حول المعاني القرآنية إلا قليلًا.

ثانيهما: أننا وجَدْنا تطابُق أقوالِ المفسرين في فَهْم آياتٍ لَا نرى أنها متفِقة مع المبادئ المقرَّرة في القرآن كأقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد أجمَع الأكثرون قبل الحافظ على أنها في عِشق النبي ﷺ لزينب بنت جحش، وما كان لنا إلا أن نُصحِّح المعانيَ ونقول الحقَّ الذي يُناسب علوَّ القرآن وكمالَ الرسالة مخالِفين هؤلاء؛ فكتابُ الله أعلى مِن أقوالهم، ومقام الرسول الأمثل أعلى مِن أقوالهم، ولو تطابَقوا عليها مع مخالفة هذه الأقوال للنصوص، وتجافيها عنها بمقدار تَجافيها عن الحق، حتى وجَد المضلِّلون الذريعةَ لأن يقولوا: النبيُّ العاشق، فضلُّوا وأضلوا كثيرًا»[(١)].

ثم ذكر منهجه فقال رحمه الله: «وإنه يجب أن نُنبِّه إلى أمور ثلاثة:

أولها: أننا لا نتجه إلى الأغاريب إلا إذا اضطُررنا لتوجيه المعاني وتقريب الناس من إدراكها، وإن ذلك نادر، وليس بالكثير.

ثانيها: أننا لا نذكر من القراءات المختلفة إلا إذا ترتَّب على اختلافها اختلافٌ في المعاني، فنذكرها كلَّها، على أنها كلَّها قرآن، وأن هذه المعانيَ كلها مقصودٌ في القرآن السامي، ودليل على إعجازه.

ثالثها: أننا في بعض المواضع نأتي بالكلام مطنبًا، وذلك لنُقرِّب الناس من معاني القرآن التي تكون موجزة في ألفاظها ثريةً في معانيها، فنحاول أن نُقرِّب الناسَ من هذه المعاني؛ لأنه ليس عندنا طاقةُ هذا الإيجاز البليغ الذي هو من دلائل الإعجاز.

هذا، وإنا لا نحاول فيما يتعلق بالكون أن نُحمِّل الألفاظ السامية فوق ما تحتمل أو غيرَ ما تحتمل»[(٢)].

المبحث الأول: السياق في اللغة والاصطلاح وأهميته وأنواعه وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: السياق في اللغة والاصطلاح

السياق في اللغة:

أصل لفظة (سياق) هي: سِوَاق، فقُلِبَت الواو ياءً لكسرة السين، وهما مصدران من ساق يَسوق[(٣)].

والسين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْو الشيء. يُقال: ساقه يسوقه سوقًا، والسيقة: ما استيق من الدواب. ويُقال: سقتُ إلى امرأتي صَداقها، وأسَقتُه.

---

(١) زهرة التفاسير: (١/١٨-١٩).

(٢) المرجع السابق: (١/١٩).

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢/٤٢٤).

والسُّوق مشتقة من هذا؛ لما يُساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيرِه، والجمعُ سُوق، إنما سُميت بذلك؛ لأن الماشيَ يَنساق عليها[١].

ويقال: تَساوَقَتِ الإبلُ تَساوُقًا: إذا تتابعتْ، وكذلك تَقاوَدت فهي مُتقاوِدة ومُتساوقة[٢].

ويقال: انساقت وتساوقت الإبل تساوُقًا إذا تتابعَت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة.

والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا[٣].

ويقال: سِياق الكلام تتابعُه وأسلوبه الذي يجري عليه[٤].

مما يُلحَظ من المعاني السابقة أن المعنى اللُّغوي الذي تَدور عليه لفظة السياق هو: ((المتابعة والتقاوُد والتسلسُل))، وأن هذه اللفظة تَعني لحوق شيء لشيء آخر.

السياق في الاصطلاح:

تفاوَت العلماء في التعبير في مفهوم السياق؛ فمنهم مَن قال:

أنَّ السياق والقرائن: «هي الدالة على مُراد المتكلِّم من كلامه»[٥].

ومنهم مَن عرَّفه فقال: «القرينةُ التي تَقترن باللفظ مِن المتكلم، وتكون فرقًا فيما بين النصِّ والظاهر هي السياق، بمعنى الغرَض الذي سِيق لأجله الكلام»[٦].

- ومنهم مَن قال هو: «ربطُ القول بغرضٍ مقصود على القصد الأول»[٧].

-ومنهم من عرَّفه بقوله: «السياق هو ما يدلُّ على خُصوص المقصود من سابق الكلام الْمَسوق لذلك أو لاحِقِه»[٨].

وبالنظر لما ذكَره العلماء في تعريف السياق، يمكن القول أنَّ السياق يتألَّف من: غرَض المتكلم، وتآلُف الكلام واتِّساقه على أسلوب واحد، وأحوال المخاطبين فيه.

فيمكن القول بأنَّ السياق:

هو الغرض الذي يَنتظم به جميعُ ما يَرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحاليَّة[٩].

ولعلَّ بهذا التعريف يتوافق المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وبه يَجتمع اختلاف العلماء في تعريف السياق - والله أعلم -.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: (س و ق)، (١١٧/٣).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة: (س ق ي)، (١٨٥/٩).

(٣) ينظر: لسان العرب: (س و ق)، (١٦٦/١٠).

(٤) ينظر: المعجم الوسيط: (س و ق)، (٤٦٥/١).

(٥) ينظر: إحكام الأحكام: (٢١/٢).

(٦) ينظر: أصول السرخسي: (١٦٤/١).

(٧) ينظر: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: (١٨).

(٨) ينظر: حاشية البناني على جمع الجوامع: (٢٠/١).

(٩) ينظر: أثر السياق القرآني في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة: (١٨/١).

المطلب الثاني: أهمية السياق القرآني

إنَّ لدلالة السياقِ القرآني أهميةً بالغة في تبيين مُراد الله تعالى في آياته، فهذه الدلالة من أهم أصول علم التفسير، فإن أغْفلَها المفسِّر فإنه يكون قد أقبَل على أعتابِ الخطأ، وارتكب الخلَل، واختصَّت آراءه بالكلل.

ومما يُبين عن أهمية دلالة السياق القرآني أمورٌ عِدَّة، منها:

أولًا: تعدُّد دلالة السياق القرآني من تفسير القرآن بالقرآن.

ثانيًا: اعتبار النبي ﷺ لدلالة السياق القرآني في تفسيره.

ثالثًا: اعتبار الصحابة ﷺ لدلالة السياق القرآني واعتبارها في تفسيرهم.

رابعًا: قاعدة السياق من القواعد المتعلقة بالأصل القرآني في التفسير.

خامسًا: أن السياق القرآني هو المعتبَر في حل الخلاف والإشكال والتشابه في الآيات، وهو الدالُّ على المناسبات وأسرار التعبير في الآية[1].

المطلب الثالث: أنواع السياق القرآني

لقد جاءت أنواعُ السياق القرآني في كتابِ: (دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن)، وهي أربعة أنواع متداخلة مبنيٍّ بعضُها على بعض، مؤتَلِفة لا تَعارض بينها البتَّة، متكاملةً تكاملًا عجيبًا، فالأنواع التي ذكرَت كالتالي:

النوع الأول: سياق الآية.

النوع الثاني: سياق النص أو المقطع.

النوع الثالث: سياق السورة.

النوع الرابع: السياق العام القرآني.

والنص الذي أفاد بهذه الأنواع هو أنَّ: «السياق قد يُضاف إلى مجموعة من الآيات التي تَدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة، ويُضاف إليها، وقد يكون له امتدادٌ في السورة كلِّها، بعد أن يمتد إلى ما يَسبقه ويَلحقه، وقد يُطلَق على القرآن بأجمعه، ويُضاف إليه، بمعنى أن هناك: سياقَ آية، وسياقَ النص، وسياق السورة، والسياق القرآني، فهذه دوائرُ متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى»[1].

---

(١) هذه الفقرة أفَدتها من رسالة الباحث: د/محمد بن عبد الله الربيعة. ينظر: أثر السياق القرآني في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة: (٢٨/١).

(١) مأمون سلامة (٨٨).

المبحث الثاني

القسم التطبيقي:

المطلب الأول: قاعدة إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أَوْلى من الخروج به عنهما إلَّا بدليلٍ يجب التسليم له

صورة القاعدة:

إذا تنازع المفسِّرون في تفسير آيةٍ أو جُملةٍ من كتاب الله، فمِنهم مَن يَحملها على معنًى لا يُخرِجها عن سياق الآيات، ومنهم مَن يحملها على معنًى يُخرِجُها عن معاني الآيات قبلَها وبعدها، ويَجعلها مُعترِضةً في السياق، فحملُ الآية على التفسير الذي يجعلها داخلةً في معاني ما قبلها وما بعدها، أَوْلى وأحسنُ؛ لأنه أوفقُ للنَّظْم، وألْيقُ بالسياق، ما لم يَرِد دليلٌ يمنع من هذا التفسير أو يُصحِّح غيره[1].

المثال التطبيقي:

١- قال أبو زُهرة رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

«فقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، هم المتقون الذين يؤمنون ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون، وتَكْرار (الاسم) الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، لا يدل على المغايَرة فيمن نزلَت فيهم الآيات؛ إنما يدل على المغايرة في الصفات، وإن كان الموصوفُ واحدًا.

كما يقول الشاعر:

إلى الـــمَلِك القَـــرْمِ[2] وابْـــنِ الْهُمَـــامِ ولَيْـــثِ الْكتِيبَـــةِ[3] في الـــمُزْدَحَمْ[4]

وقد ادَّعى بعضُ المفسِّرين أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ إلى آخر الآية، إنما نزلَت في اليهود الذين آمَنوا بمحمد ﷺ؛ كعبد الله بن سَلَام وغيرِه.

وينطبق عليهم قولُ النبي ﷺ: (ثلاثةٌ يُؤتَوْن أجرَهم مرتَين؛ رجلٌ من أهل الكتاب آمَن بنبيِّه، وآمَن بي، ورجلٌ مملوك أدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ مَوَاليه، ورجل أدَّب جاريتَه، فأحسن تأديبها، ثم أعتقَها وتزوَّجها)[5].

---

(١) ينظر: قواعد الترجيح، للحربي: (١/١٢٥).

(٢) القَرْم في الرجال: السيد المعظم. ينظر: لسان العرب: (ق ر م).

(٣) القطعة العظيمة من الجيش. ينظر: لسان العرب: (ك ت ب).

(٤) مكان الزحام، وهو أن يزحم القومُ بعضُهم بعضًا من الكثرة. ينظر: لسان العرب: (ز ح م). *والشاهد من البيت: لا يلزم من تعدد الصفات، مغايرة المتصفين فيها، فقد تتغاير ويكون الموصوف واحدًا.

(٥) أخرجه البخاري في (صحيحه)، (كتاب الجهاد والسِّير، باب: فضل من أسلم من أهل الكتابين، (٤/٦٠)، (رقم الحديث: ٣٠١١)، ومسلم في(صحيحه)، (كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ المِلَل بمِلَّته، (١/١٣٤)، (رقم الحديث: ١٥٤)، كلاهما عن أبي بُرْدةَ بن أبي موسى عن أبيه، بتقديمٍ وتأخير.

والحقُّ أن فصل ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ عن سياق ما قبلها من غير دليل، مُخالَفةٌ لظاهر السياق من غير باعثٍ يَبعث على ذلك.

والسِّياقُ واضحٌ متَّسِق على أنَّ ذلك كلَّه وصفٌ للمتَّقين؛ فهم لإيمانهم بالحق، وخشوعِ قلوبهم يتقبَّلون الهِداياتِ السماويةَ مُذعِنين غيرَ معانِدِين ولا منحرفين، وإن المتقين يَشملون من اتَّصَف بتقوى الله تعالى مُصْغِينَ إلى تكليفه، مؤمِنين بغَيبه مُقرِّين بحقِّ عبادِه، وهم مِن كلِّ خلق الله، لا فرقَ بين عربيٍّ وكِتابي، ولا مَن كان أصلًا وثَنيًّا، أو كان يهوديًّا أو نَصرانيًّا؛ فمَن اتَّقى الله واستقام على الجادَّة، وآمنَ بالغَيب واتَّجَه إلى ربِّه، فالآيةُ تَشتمل عليه، ولا يخرج عنها؛ فالعموم أَوْلى وأوفقُ مع السياق من الخصوص»[1].

ووافَقَه في ذلك ابنُ كثيرٍ رحمه الله[2]، وخالَفَهما الطبري رحمه الله[3]، ورجَّح أنَّها إنَّما نزلَت في اليهود الذين آمَنوا بمحمدٍ ﷺ؛ كعبد الله بن سَلَامٍ وغيرِه، واستدلَّ بالحديثِ الذي ذكره الشيخُ أبو زُهرة رحمه الله[4].

المطلب الثاني: قاعدة: لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوعُ إليه

صورة القاعدة:

الأصل في نصوص القرآن – وكذا السُّنة – أن تُحمَل على ظواهرها، وتُفسَّر على حسَب ما يَقتضيه ظاهرُ اللفظ، ولا يجوز أن يُعدَل بألفاظ الوحي عن ظاهرِها إلَّا بدليلٍ واضحٍ يجب الرجوعُ إليه؛ ولأنه لا يُعرَف مرادُ المتكلِّمِ إلَّا بالألفاظ الدالَّة عليه، والأصلُ في كلامه وألفاظه أن يكون دالًّا على ما في نفسه من المعاني، وليس لنا طريقٌ لمعرفة مرادِه من غير كلامه وألفاظه[5].

المثال التطبيقي:

رجَّح الشيخ أبو زُهرة رحمه الله معتمِدًا على هذه القاعدة في بعض المواضع من تفسيره، ومن ذلك:

١ – عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

---

(١) زهرة التفاسير: (١/١١٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (١/١٧٠). *وهو: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير. فقيه متفنِّن، ومحدِّث متقِنٌ، ومفسِّر نقَّاد. من شيوخه: (برهان الدين الفزاريُّ)، و(كمال الدين بن قاضي شهبة). ومن تلاميذه: (شهاب الدين بن حجّي. ومن مصنفاته: (الأحكام على أبواب التنبيه)، و(طبقات الشافعية). توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة. ينظر: طبقات المفسرين، للداودي: (١/١١٣).

(٣) أبو جعفر، محمد بن جَرِيرِ بن يَزيدَ الطبري. رأسُ المفسِّرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره. من شيوخه: (أحمد بن منيع)، و(هنَّاد بن السَّرِي). ومن تلاميذه: (الطبراني)، و(أحمد بن كامل). له التصانيف العظيمة، ومنها: (جامع البيان في التفسير)، و(تاريخ الأمم). تُوفي سنة عشر وثلاثمائة. ينظر: طبقات المفسرين، للسيوطي: (٩٥– ٩٧).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (١/٢٤٦) وهناك قاعدة متعلقة بسبب النزول أنَّ القول المتوافق مع سبب النزول أولى بالصواب ... وقاعدة أخرى متعلقة بالحديث، وهي أنَّ الحديث إذا ورد مورد التفسير للآية قدِّم على غيره.

(٥) ينظر: قواعد الترجيح، للحربي: (١/١٣٧).

أورد رحمه الله خلافَ أهلِ التفسير في المراد بالصلاة على قولين:

القول الأول: قال رحمه الله: «والصلاة كانت معروفةً عند العرب بأنها الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وإطلاقها على الصلوات الخمس؛ من قيام وقراءة، وركوع وسجود، وتحيات – اصطلاح إسلامي»(١).

القول الثاني: قال رحمه الله: «ولقد فسَّر بعضُ العلماء الصلاةَ هنا بالدعاء؛ أي الضَّرَاعة إلى الله تعالى، راجيًا ما عنده، مؤمنًا به، مستجيبًا لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]»(٢).

ورجَّح رحمه الله القول الأول بقوله: «ولكنَّ الأكثرين –وهو الظاهر الذي يبدو من القول– على أنَّ المراد بها الصلاة المكتوبة، وأنَّ الضراعة والدعاء تتضمَّنُه الصلاة المكتوبة، وأنَّ الصلاة قد فُرضت في مكة، وصارت متعارفة، كغيرها من الكلمات التي كان في معناها عمومٌ، ثم خصَّصها الإسلام»(٣).

ووافقه من المفسِّرين الطبري(٤)، والبغوي(٥) رحمهما الله.

المطلب الثالث: قاعدة: حَمْل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهودِ استعماله، أَوْلى من الخروج به عن ذلك

صورة القاعدة:

إذا تنازَعَ المفسِّرون في تفسير آيةٍ أو جُملةٍ أو لفظة من كتاب الله؛ فأَولى الأقوال بالصواب، هو القول الذي يُوافِق استعمالَ القرآن في غيرِ موضع النزاع، سواءٌ أكان ذلك في الألفاظ المفرَدة، أو في التراكيب.

وسواءٌ أكان ذلك الاستعمالُ استعمالًا أغلَبيًّا –بأن كان لموضع النزاع نظائرُ وقع فيها النزاع، ولكن الكثرة الكاثرة من الاستعمال هي مما اتُّفق على معناه– أو مطَّرِدًا –بأن يكون استعمالُها في جميع مواردها في القرآن متَّفَقًا عليه، غير موضع الخلاف؛ بأن يقول مفسرٌ قولًا في آيةٍ جميعُ نظائرِها في القرآن على خلاف هذا القولِ– أو عادةً في أسلوب القرآن(٦).

---

(١) زهرة التفاسير: (١/١٠٥).

(٢) المرجع السابق: (١/١٠٥).

(٣) المرجع السابق: (١/١٠٥).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري: (١/ ٢٤٣).

(٥) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي: (١/٦٣). *وهو: الحسين بن مسعود بن محمد، أبو محمد البغوي، الفقيه الشافعي، يلقب بمحيي السنة. كان إمامًا في التفسير، إمامًا في الحديث، إمامًا في الفقه. من شيوخه: (القاضي حسين)، و(عبد الواحد المليحي). ومن روى عنه: (أبو المكارم فضل الله بن محمد) إجازةً. من مصنَّفاته: (معالم التنزيل في التفسير)، و(شرح السنة). توفي سنة ست عشرة وخمسمائة. ينظر: طبقات المفسرين، للسيوطي: (٤٩– ٥٠).

(٦) ينظر: قواعد الترجيح، للحربي: (١/١٧٢).

المثال التطبيقي:

طبق الشيخ رحمه الله هذه القاعدة في عدد من المواضع في تفسيره، ومنها عند تفسيره لقوله عز وجل:

١- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

حيث أبان رحمه الله أنَّ الباء هنا لم تدخل على المستعان به، مستنِدًا في ذلك إلى أسلوب القرآن؛ فقال: «الاستعانة طلبُ العونِ، والمساعدة، وفي استعمال القرآن أنها إذا كانت للمعين تعدَّت بغير باء؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وفي الدعاء: (اللَّهمَّ إنَّا نستعينُك ونَستهدِيك ونستغفرُك ونتوب إليك)، وإذا كانت الاستعانة بما تكون به الإعانة كانت بالباء، فيقال: نستعين بكذا لفِعل كذا، وهكذا نجد بالاستقراء استعمالَ القرآن.

وهنا الاستعانة بشيء؛ ولذا تعدَّت بالباء، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾؛ أي استعينوا على تربية نفوسِكم لتكون متَّعِظةً فاعلةً الخير، آمرةً به، ولا يتجافى فِعلُها عن قولها»(١).

وقد ذهب إلى أنَّ المستعان عليه محذوفٌ، عددٌ من أهل العلم المعتنِين بالنَّحو القرآني، ومنهم:

أبو حيَّان(٢)، والسَّمِين الحَلَبي(٣).

الخاتمة:

وبعد؛ فإنَّ الحديث عن (دلالة السياق القرآني، وأثرها في الترجيح) ذو أهمية بالغة، وفائدة كثيرة نافعة، وإثْرَ مُعايشتي لهذا الموضوع (السياق القرآني وأثره في الترجيح عند الشيخ أبي زهرة في تفسيره زهرة التفاسير)، أستطيع أن أُبرِزَ النتائجَ الدَّالةَ على ذلك:

١- أنَّ المراد بمعنى السياق: الغرَض الذي ينتظم به جميعُ ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحاليَّة.

٢- تعدُّد دلالة السياق القرآني من تفسير القرآن بالقرآن.

٣- دلالة السياق القرآني معتبَرة شرعًا، فقد استخدمها النبي ﷺ وصحابته ﷺ من بعده، ثم تتابع العلماءُ على استخدامها.

٤- للسياقِ القرآني أربعة أنواع: سياق الآية، وسياق النص أو المقطع، وسياق السورة، والسياق العام القرآني.

٥- اتخذ الشيخُ أبو زهرة رحمه الله السياقَ قاعدة متعلقة بالأصل القرآني، وطبق ذلك عمليًّا من خلال تفسيره.

---

(١) زهرة التفاسير (٢١٨/١).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٢٩٨/١). *وهو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، أبو حيان الأندلسي. نحوي عصره، ولغويه، ومفسِّره، ومحدِّثه، ومُقرِئه، ومؤرِّخه، وأديبُه. من شيوخه: (أبو جعفر الطَّبَّاع)، و(ابن أبي الأحوص). ومن تلامذته: (تقي الدين السبكي)، و(الجمال الأسنوي). من مصنفاته: (البحر المحيط في التفسير)، و(النهر). توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة. ينظر: طبقات المفسرين، للداودي: (٢٨٧/٢-٢٩١).

(٣) ينظر: الدر المصون: (٣٣٠/١). *وهو: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي. كان فقيهًا بارعًا في النحو والقراءات، ويتكلم في الأصول، وكان أديبًا. من شيوخه: (أبو حيان)، و(يونس الدبوسي). من مصنفاته: (الدر المصون)، و(شرح التسهيل). توفي سنة ٧٥٦هـ. ينظر: الدرر الكامنة: (٤٠٣/١).

٦- من القواعد المتعلِّقة بالسياق وأعملَها الشيخُ أبو زهرة رحمه الله في تفسيره، ورجح المعانيَ معتمدًا عليها، ما يلي:

- قاعدة: إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلا بدليلٍ يجب التسليمُ له.
- قاعدة: لا يجوز العُدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه.
- قاعدة: حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى مِن الخروج به عن ذلك.

وختامًا:

يسلك الإنسانُ مسلكًا في العلم قد يصل به لمبتغاه، ويقع على شيء مما يَروم، وقد لا يصل، وعزاؤُه أنه مهَّد، واستشرَف، وطلَب، وهمَّ، ولعل هذا البحث قد مهَّد، ولعله كاد أو قارَب، وأوصي أنْ يكون بَذْرةَ بحوث أخرى أمكَنَ علمًا وأكثرَ نضجًا وتوسعًا سواء في نفس الموضوع أو نحوه.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع:

أثر السياق القرآني في التفسير (دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة): محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرَّبيعة (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، إشراف الدكتور: محمد بن عبد الرحمن الشايع، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، نوقشت في قسم الدراسات العليا - بكلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

اجتماع الجيوش الإسلامية: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية. (ت: ٧٥١هـ). تحقيق: عواد عبد الله المعتق، ط١، مطابع الفرزدق التجارية: الرياض، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: تقي الدين ابن دقيق العيد. (ت: ٧٠٢هـ). حققها وقدم لها وراجع نصوصَها: أحمد محمد شاكر، ط٢، (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، عالم الكتب: بيروت.

أصول السرخسي: محمد بن أحمد سهل السرخسي. (ت: ٤٨٣هـ). (ط بدون)، (ب.ت)، دار المعرفة: بيروت.

البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. (ت: ٧٤٥هـ). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م)، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية _ عبد السند حسن يمامة.

البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. (ت: ٧٩٤هـ). تحقيق: يوسف المرعشلي وجمال حمدي وآخرون، ط١، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، دار المعرفة: بيروت.

تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير): إسماعيل بن عمر بن كثير. (ت: ٧٧٤هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، ط٢، دار طيبة للنشر: الرياض.

تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهري الهروي. (ت: ٣٧٠هـ). تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، (٢٠٠١م).

جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري. (ت: ٣١٠هـ). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط١، (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، هجر للطباعة والنشر: القاهرة.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. (ت: ٧٥٦هـ). تحقيق: أحمد محمد الخراط، (ط بدون)، (ب.ت)، دار القلم: دمشق.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني. (ت: ٨٥٢هـ). تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط٢، (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م)، صيدر آباد، الهند.

زُهرة التفاسير: محمد مصطفى أبو زهرة. (ت: ١٩٧٤م). (ط بدون)، (ب.ت)، الأزهر: مجمع البحوث الإسلامية، دار الفكر العربي.

طبقات المفسرين العشرين: (طبقات المفسرين للسيوطي): عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. (ت: ٩١١هـ). تحقيق: علي محمد عمر، ط١، (١٣٩٦هـ). مكتبة وهبة: القاهرة.

طبقات المفسرين للأدنه وي: أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر. (ت: ق: ١١). تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، ط١، (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، مكتبة العلوم والحكم.

طبقات المفسرين للداودي: محمد بن علي بن أحمد الداوودي. (ت: ٩٤٥هـ). راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، ط١، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، دار الكتب العلمية: بيروت.

طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي. (ت: ٩١١هـ). تحقيق: علي محمد عمر، (ط بدون)، (١٤٣١هـ-٢٠١٠م)، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

قواعد الترجيح عند المفسرين (دراسة نظرية تطبيقية): حسين بن علي بن حسين الحربي، راجعه وقدم له: منَّاع بن خليل القطَّان، ط١، (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، دار القاسم: الرياض.

لسان العرب: محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور. (ت: ٧١١هـ). ط٣، (١٤١٤هـ)، دار صادر: بيروت.

مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. (ت: ٧٢٨هـ). جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم وابنه محمد، (ط بدون)، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م).

المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (ت: ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (١٤١٢هـ-١٩٩١م)، دار الكتب العلمية: بيروت.

معالم التنزيل في تفسير القرآن (معالم التنزيل للبغوي): أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي. (ت: ٥١٠هـ). حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط٤، (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، دار طيبة: الرياض.

معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. (ت: ٣٩٥هـ). تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، (ط بدون)، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، دار الفكر.

الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ). صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، ط٢، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).

المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: أبي محمد القاسم السجلماسي. (ت: -). تقديم وتحقيق: علال الغازي، ط١، (١٤٠١هـ-١٩٨٠م)، مكتبة المعارف: الرباط.

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني. ط٣، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع: الرياض، (١٤١٨هـ).

النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير. (ت: ٦٠٦هـ). تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، (ط بدون)، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، المكتبة العلمية: بيروت.